هدية المقتطف

قطف الثمار

للشاعر الفيلسوف الهندي رابندرانات طاغور

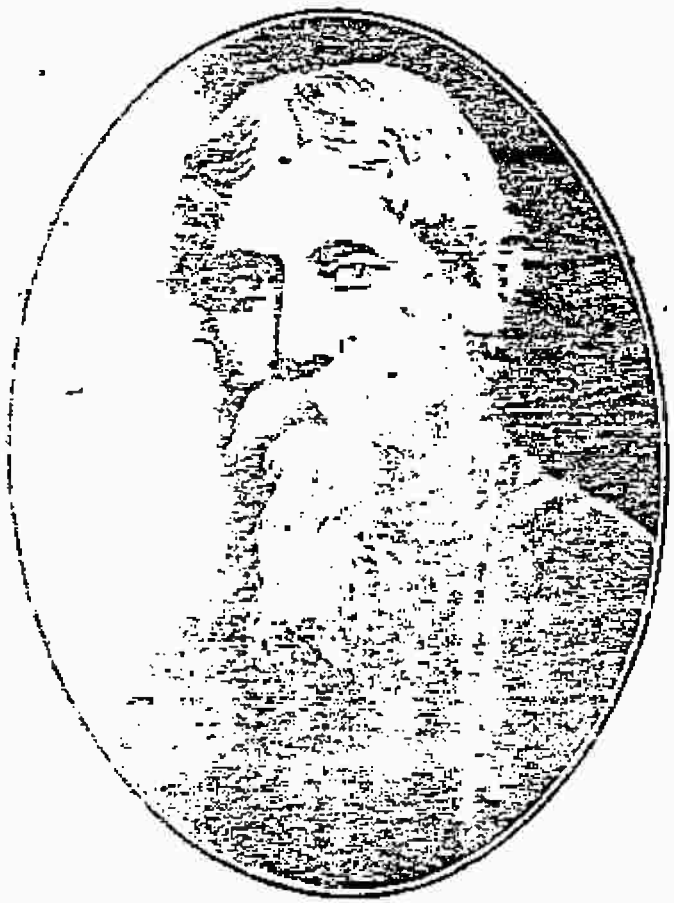

نقلها الى العربية : كامل محمود حبيب

قطف الثمار

للشاعر الفيلسوف طاغور

— ١ —

سُرِرْتِ فانعقف ثماري وأحملها الى ثغرك في سلال مملوءة ، ولو ان بعضها فسد والبعض لم ينضج بعد

فالوسم يبدو شريداً بغيضاً ، وهنا تاي الراعي الحزين تحت التي

سُرِرْتِ فأبحر على النهر

إن رياح مارس المتناوحة تداعب الأمواج الفائرة فيبعث منها أنين

لقد آنت الحديقة أكلها ، وفي الأمسيات الكئيبة يلقي تدانون صدوراً من قلب دارك ... من لدن الشاطىء المقفر في الغروب

— ٢ —

في رونق الشباب كانت حياتي كزهرة ... زهرة نزلت عن ورقة أو ورقتين من ثرائها حين أتيتك أقاسم الزهر تدنف لدي منها تستحثني بهما فتبتسم فتدعا والآن ، حين أرشكت نضرة الشباب تذوي ، أصبحت حياتي كثمرة ... ثمرة لا تجد ما تضني به ، وهي تنتظر لتهب نفسها كاملة وما تنضم عليه من حلاوة

— ٣ —

أفيضم مهرجان الصيف الأكمام اليانعة خلسة ويذر الأوراق الذابلة والأزهار الناوية

أيوقع ألحانه على نغم الأمواج المرتفعة خلسة ؟

ثم لا يرتل ترانيم الأمواج الهابطة ؟

إن الجوهريزن بساطاً يقف عليه ملكي ، وهناك حصوات صابرة تثوب لسنة من تدمي وقليل من يجلسون بازاء سيدي هم الحكماء والعظماء ، ولكنهُ يلم الحق بين ذراعيه ، وهو اصطفاني لأكون خادمه الى الأبد

— ٤ —

حين استيقظتُ في الصباح ألفيتُ رسالته

فما استطعت أن أفك رموزها لأني أميّ

سأذر الفيلسوف وحده يجلس الى كتابه ، ولن أفزعه ، فمن يدري لعله لا يستطيع ان يفتح مغاليق هذه الرسالة

* * *

دعني أنس بها حبيبي وأضمها الى صدري

وحين يهدأ الليل ، وتتلألأ الكواكب كوكباً كوكباً ، أنشرها على فخذي وأجلس في صمت

إن حفيف الأشجار سيقرؤها لي في صوت مرتفع ، والغدير المتدافع سيرتلها لي والأفلاك الحكيمة السبعة ستوقع لي لحنها في نسيم السماء

لا أستطيع ان أجد ما أفتش عنه ، ولا أستطيع أن أفهم ما أريد أن أسمعه ، غير أن هذه الرسالة التي لم تقرأ خففت من أثقالي ، وأحالت خواطري الى أغان

— ٥ —

إن قبضة من تراب تستطيع ان تطلع على آثارك حين لا أدرك معناها

لقد قرأتها من أسطر الغيب لأني الآن أرجح عقلاً من ذي قبل

إنها منقوشة على أوراق الزهر ، وهي تلمع بين زبد الموج ، ثم هي تتراءى فوق قمم التلال

لقد طويت وجهي عنك . فلما قرأت رسالتك المنثورة فوقي وجدت سرها

— ٦ —

حيث الطريق لاحب ، ضللت أنا السبيل

إن طريقاً لم يخطّ على صفحة الماء المنبسط . ولا على السماء الزرقاء

ولكنهُ يتوارى تحت أجنحة الطير ، وفي وهج النجوم ، وخلف الغصون المتعانقة

وأنا أسأل قلبي : أيحمل في دمه حقيقة الطريق الذي لا يرى

— ٧ —

واأسفاً ! إني لا أستطيع ان أثلث في داري،فأنا أصبحت غريباً عن وطني، لأن (الغريب) الأبدي يناديني وهو يدلف على الطريق

إن وطء قدميه يصك صدري ، تبؤلني !

وإن الرياح تثور والبحر يزمجر

وأنا أطوّح بشواغلي وشكوكي لأنطلق الى المهرجان اللامكاني لأن(الغريب) يناديني وهو يدلف على الطريق

— ٨ —

كن على الأهبة لأن تنطلق على سفنك ، يا قلبي ، ودع سواك يتلكأ

لأنك نوديت من جانب لجة الإصباح

فلا تنتظر شيئاً

* * *

إن غاية الحكيم أن يجد الليل والندى ، أما الزهرة المتفتحة فتحنّ إلى حرية النور فخشم تيودك ، يا قلبي ، وتعال إليّ

— ٩ —

حينما كنت أضطرب في أضواء كنزي المندثر ، كنت أشعر كأني حشرة تعيش في الظلام وتتعذى عن الثمرة التي فيها ولدت

ثم فزعت عن سجن الثناء هذا

فأنا لا أطمئن إلى السكون المضني لأني أنفض عني الثياب الأبدي ، سأتحلل من كل ما يناقض حياتي ، ومن كل ما لا يشع رقة كما تفيض ابتساماتي

لقد جئت خلال الزمن ، وفي عربتك — يا قلبي — شاعر يتنفس ويغني وهو في رحلته

— ١٠ —

أنت جذبتني إلى جانبك ، واجلستني أمام الناس في مقام عالٍ فاعترتني هزة الخوف ، فما استطعت أن أنهض لأنطلق الى غايتي ، وبدت في خطواتي سمات الشك والريبة ، خشية أن أدوس على شوكة من أشواك احتقارهم

وأخيراً وجدتُ حريتي

لقد بلغتنا الصيحة ، وارتفعت نقرات ناقور الإنذار ، ثم انحطَّ مجلسي الى التراب وانفرج أمامي الطريق

* * *

لقد كانت رغبات السماء تحتزم في حجاجي

فاندفعت أريد أن أصاحب نجوم السُّدفة ، وأن أقتحم في الظلام الدامس

إني كسحابة صيف تلقاها عاصفة ، فهي حين تلقي بناجها الذهبي تسل صاعقة كالسيف على سلسلة البرق

وفي ساعة المرح الطائش ، أنطلق أنا على طريق أطوان الترب ، لأكون الى جانبك فأحيك التحية الأخيرة

* * *

الطفل يجد أمه حين يفلت من يدها

وأنا حين فصلت عنك ، حين نأيتُ عن دارك ، وجدتُ القدرة على أن أنظر إلى وجهك

— ١١ —

هذه القلادة الخلابة تزيني لحبيبي

إنها تسحنني حين أعطفها في عنقي ، وهي تحنقني حين أحاول أن أحسنها

وهي تعصر عنقي ، وتقلم على أغاني

* * *

أفأستطيع أن أحبها لك ، يا إلهي فأحد الأمان

حقاً ، وهو ذي عنقي من فصل بينك وبيني بجبل من الزهر ، لأني أستشعر الخجل حين ألفت أمامك وحدها القلادة الخلابة في عنقي

— ١٢ —

هناك في المنخفض يغاب نور الجوسنا في هدوء وصفاء ، ومن فوقه يشرف الشاطئان في عبوس

والهضاب تتسلل عليها ظلماء الغابة ، ومن حوانيها تلتف آثار السيول

هناك ، على الصخرة ، جلس جرفندا ، الأستاذ الأكبر ، يقرأ الأساطير ، ثم أقبل تلميذه راجونات خوراً بزاده . . . أقبل فانحنى ثم قال « لقد جئتك بهدية صغيرة لا تستحق منك القبول

* * *

قال ذلك ونثر على عيني أستاذه سوارين من ذهب رصع بالأحجار الكريمة فأخذ الأستاذ واحداً وأداره حول أصبعه فانبثت من أحجاره اثنية قرون من الأشعة وعلى حين فجأة أفلت السوار من يده ، واجتاز الشاطىء لينثر في الماء فتزع راجونات صائحاً وراء أسفاه ! ثم وثب الى البحر

واطمأن الأستاذ الى كتابه ، أما الماء فقد ضمت ما أحدثت واخفته بين طياتها ثم انطلقت وحين اكتمل النهار عاد راجونات الى أستاذه متثاقل الخطو نقي عرقاً

لقد كان يسيطر عليه الضجر حين قال « يا ذات آمل أن أجد السوار فهل أنت هديتني الى حيث سقط »

فأخذ الأستاذ السوار الثاني وقذف به الى الماء وهو يقول « هناك »

— ١٣ —

إن الحركة معناها أن أفقد كل لحظة يمضيها السافر

وأن أخشى لحن وقع قدميك

فإن الذي فلسفة أفلاسك لا ينطلق الى الشاطىء الأمين

بل ينثر شراعاً قوياً ويركب الماء الهائج

* * *

إن الذي يذر بابه مفتوحاً وينطلق قدماً يفوز بحبيبك

إنما هو الذي لا يلتفت ليحني رأسه او ليأسى على خسارته ، فلذا يدرك

ما حصوله لأنه لم يفقد بعد السافر

— ١٤ —

إن يديك ستحيوان بعيني الحزين من الحياة . هكذا وعدتني

طفا نورك يلمع في عيوني

إني أخشى أن يقودني سواك حين أخطئك وأنت تنتظر على حيد الطريق

لتكون قائدي

إني أنطلق الى حيث يحلو لي لكي تجذبك حاقتي الى بابي
لأنك وعدتني بأن يديك ستجوبان بتعبي الجميل في الحياة

— ١٥ —

إن لغتك سهلة ، يا إلهي ، وهي على نقيض لغة الذين يتحدثون عنك
إني أعي حديث كواكبك وصمت أشجارك
وأنا أثق بأن قلبي سيتفتح كالزهرة ، وأن حياتي أزعت نفسها من ينبوع حبي
وأغانيك ، كأنها طيور الجهات الثلجية النائية ، تهدف أن تجد أعشاشها
في تلبي لتستمر دفء أبريل ، وأنا أرتب بهجة هذا الفصل في رضا

— ١٦ —

لقد اجتمعوا على الطريق فانطلقوا يفتشون عنك في الزقاق الضيق ، غير أني
ذهبت أضرب في تيهاء الظلام لأني كنت في عماية من أجرك
إني لم أعلم العلم فيبذر في غراس الخوف منك في الظلام ، لهذا دلفت الى
عتبة بابك في غير روية .
فأسي المكسوف وأمرني أن آتي لأني لم أطل عن طريق الزقاق الضيق
وانقلبت في ريب ، غير أنك أمسكت بي في سرعة ، فانطلق احتجاجهم صارخاً

— ١٧ —

لقد أخرجت مصباحي الأرضي وبادرت ، تقولون ، أيها الأطفال ، لأنير لكم
الطريق ؟
ثم عدت والليل ما يزال في ظلماه ، والطريق من ورائي ساكن . . . عدت
وأنا أنادي ، أنيري لي ، أيتها النار ، فلقد سقط مصباحي الأرضي في التراب
فتحطم ؟

— ١٨ —

لا ، ليس لك أن تفتح الكم عن زهرة
هز الكم أو أدفئه فانه يعجزك أن تجعل منه زهرة
إن لسانك تدلسه ، وأنت تمزق أوراقه وتقذف بها الى الرغام

ثم لا يبدو اللون ولا ينتشر العطر
آه ، إنهُ لست أنت الذي تنتج الكم عن زهرة

* * *

إن الذي يستطيع أن ينتج الكم يفعل ذلك في سهولة
إنهُ يحبوها بنظرة واحدة فيتدفق رحيق الحياة في عروقها
وعندما يرسل أنفاسه تنشر الزهرة أجنحتها وتحلق في هبة الريح
ثم يشرق اللون فيها كأنهُ هوى القلب ، وتنبعث من العطر حلاوة خفية
لأن الذي يستطيع أن ينتج الكم يفعل ذلك في سهولة

—١٩—

لقد تطلب سوداس البستاني آخر زهرة من زهرات اللوتس استطاعت أن تفلت من بين يدي نسوة الشتاء، وانطلق الى باب القصر ليبيعها للملك

وهناك اعترضهُ سائح فقال له « بلغني أن آخر زهرة من زهرات اللوتس فأنا أريد أن أقدمها قرباناً للإله بوذا »

فقال سوداس « إذا دفعت ذهباً كثيراً فهي لك »

فدفع السائح ما طلب البستاني

* * *

وفي هذه الأثناء أقبل الملك يبتغي الزهرة ، لأنهُ كان في طريقه الى الإله بوذا ، أقبل وهو يحدث نفسه « ما جعل الله أضع عند قدميه زهرة من زهرات اللوتس تفتحت في الشتاء »

وحين قال البستاني انهُ تقاضى ثمنها ذهباً ، قال له الملك ضاحكاً : غير أن السائح خاطب البستاني

وتراءى للبستاني الثمن الوفير الذي يستطيع أن يظفر به من ذلك الذي يتطاحنان من أجله ، فاحمر ثم قال « إني لا أستطيع أن أبيع هذه الزهرة »

وفي ظل غابة الماهوجو الصامت ، بإزاء سور المدينة ، وقف سوداس أمام الإله بوذا ... بوذا الذي ارتسمت على شفتيه تحفة ست الاخلاص ، ومن عليه شعت علامات السلام كأنها نجم الصباح غسله أندى الطريف

فنظر سوداس في وجهه ، ووضع الزهرة عند قدميه ، ثم انحنى حتى مس جبينه الثرى

فابتسم بوذا وقال « ماذا تأمل ، يا بني ؟ »

فهتف سوداس قائلاً « الغبطة الضئيلة من نعيمك ! »

— ٢٠ —

اجعلني شاعرك ، أيها الليل ، أيها الليل المتسع !

إن ناساً كثيرين نشؤا في ظلامك أجيالاً صامتين ، فدعني أرتل أغانيهم

خذني على عربتك وانطلق في غير جلبة من دنيا الى دنيا . أنت يا مليكاً في قصر الزمان . انت أيها الجمال المظلم

إن كثيراً من العقول المرتابة تملكتْ الى نفاثك ، وجالتْ في آفاق دارك المعتمة يفتشون عن هدى

إن كثيراً من القلوب ، التي أصابها سهم الفرح المنطلق من يد الله ، تفجرت عن أغاني معطرة تريح لها الظلماء من قرارها

وإن تلك الأرواح البغطى تحت أضواء النجوم ، تحدق — في دعة — في الكنز الذي عثرت عليه على حين فجأة

فاجعلني شاعرهم ، أيها الليل ... شاعر صمتك العميق

— ٢١ —

سألاقي — يوماً — أنا والحياة التي تأرثت فيّ ، أنا والفرح الذي يتوارى في حياتي . هذا رغم ان الأيام تشوّه طريقي بترابها الفث

لقد عرفتها في لحظات ، وأغاسها المضطربة تغمرني فتأرج بها خواطري ساعة من زمان

سألاقي — يوماً — أنا والفرح الثاني عني ، الفرح الثاوي خلف أستار النور ... ثم أقف في الوحدة الفياضة حيث تبدو الأشياء عارية كيوم خلقت

— ٢٢ —

إن هذا الصباح الخريفي يشبه فيض النور، فاذا رأت أطيافك تتثاءب وتتمتم فأعرني نايك ساعة

سأعزف عليه لحناً كما يهوى . . . فالآن أخذه على حجري ، وألمسه بشفتي ، ثم أضمه الى جانبي على الحشائش

غير أني سأقطف الزهور في عمق الليل وحدأته لأهيء منها بعض الأكاليل، ثم أغمسها بالمطر ، وأبيضها على ضوء الصباح

ثم أقبل في الظلماء لأردّ لك نايك

لتعزف أنت عليه لحن نصف الليل على حين يضطرب الهلال وحيداً بين النجوم

— ٢٣ —

إن عقل الشاعر يسبح ويرقص على أمواج الحياة بين زئير الرعد وخرير الماء

والآن حين تنطلق الشمس الى خدورها وتسدل الأستار المضيئة على البحر كما أسدل جفن على عين مهباة . . . حين ذاك يجب له أن يمسك بقلمه ويرسل خواطره لتنتشر في أعماق سر السكون الأبدي

— ٢٤ —

الليل ساج ، وجثمتك في سكون حياتي عميقة

فاستيقظي ، يا آلام الحب ، لأني لا أعرف كيف أفتح الباب ووقفت لأزيله

إن الزمن يمشي ، والكواكب ترتب ، والرياح هامة . ولكن هذا السكوت ثقيل على قلبي

فاستيقظي أيها الحب، استيقظي، واترع كأسي الفارغة وأزح الليل بأقداحك الثائبة

— ٢٥ —

إن ديك الصباح يصيح

لقد راح يتحدث عن الصباح قبل أن يتصدع عامود الظلام . . . حين كان مارد الليل ما يفتأ يلف السماء في ملاءته السوداء الباردة

* * *

خبّرني يا ديك الصباح ، كيف استطاع رسول للشرق أن يجد طريقه الى

أحلامك من خلال طيات ظلام السماء وظلام أوراق الشجر
إن العالم لا يكاد يصدقك حين تصيح «ان الشمس تجري الينا ، وان الليل يتداعى»
فاستيقظ أيها النائم
احسر عن جبينك وانتظر أول لمحات الضوء . وغرد في مرح مع طير الصباح

— ٢٦ —

إن الضحاة الذي في يرفع يديه الضعيفتين صوب السماء الصافية ، ويهمس بصوته المرتعش في أذن الليل
لقد كانت صلواته لنظام الأعمى المنشور كلمة إله سقط في سماء موحشة أقفرت من الأمل
ولكن صرخة الرغبة تقف لفترات اليأس كما يقام طائر شجي حول عشه الخالي
وحين يلقي الصباح رحله عند حافة المشرق يهتف الضحاة الذي في
« باركني ، أنا من يغذي الليل الأصم ... الليل ذو الجوف الخاوي »
فيصيح الصباح « أيها الحياة ، أيها النور ، أنا كريم ! ويا لها من لمسة حين يهتدي اليكما ! »

— ٢٧ —

لقد كان ساتان جالساً على شاطىء نهر الطاتج بعد حين أقبل براهمي في أعقابه يقول « ساعدني ، فأنا فقير ! »
فأجابه ساتان « إن جنات الصدقة هي كل ما أملك ، أما أنه فقد نزلت عن كل مالي »
فقال البراهمي « ولكن الإله سيقا أوحى إليَّ — فيما يرى النائم — أن أطلق اليك »
وعلى حين فجأة ذكر ساتان انه كان قد التقط حجراً كريماً من بين حصباء الشاطىء ودسه بين ثنايا الرمل ، وفي نفسه ان انساناً سيحتاج اليه
فدل البراهمي على مكانه ، وراح هذا يبحث عنه
ثم جلس البراهمي على الارض وحده يفكر حتى توارت الشمس بالحجاب

خلف الأشجار ، وحتى أخذ رعاة البقر يتوافدون هم وقطعانهم الى الدور

فهب يهفو نحو سائلتان في أناة ويقول « ياسيدي ، امنحني ذرة من الثراء الذي يزري بكل الثراء الأرضي »

ثم قذف بالحجر الكريم في الماء

— ٢٨ —

إني أهفو نحو بابك في الفينة بعد الفينة ، رافعاً يدي ، سائلاً المزيد والمزيد

وأنت تهب وتهب ، مرة بقدر ومرة في فيض

وأنا آخذ شيئاً وأذر أشياء ، فبعض يبدو بكفي وبعض أعيت يداي كأنه لهب ، ثم أحطه حين يتوراى الأين ، ثم تنكبس هداياك حطاماً فتواريك عن الانظار ، غير أن الأمل الدائم يسحق قلبي

إن سيحلو الآن هبني خذ ، أوه خذ

بشوكل ما في جعبة هذا السائل ، وأطفئ مصباح هذا الحارس المضني ، وخذ يدي وارفعني من بين أكداس هداياك الدارية اللانهائية ... ارفعني لأكون في حضرتك الخالدة

— ٢٩ —

لقد قذفت بي بين هؤلاء المقلوبين

وأنا أعرف أنه ليس لي أن أرتاح ولا أن أفزع عن خاطره

فسأقتصر في الوحدة ولو أني قد أصغ إلى قرارها

وسأقاس بحياتي

* * *

سأخاطر بكل ما لدي من مال ، وحين أخسر آخر فلس سأخاطر بنفسي ، إذن يتراءى لي أني سأربح من خلال خلقي الناجحة

— ٣٠ —

لقد تشاءت ابتسامة السرور على وجه السماء حين ألقيت قلبي أشلاء وأرسلته الى الطريق بسجدي

لقد انطلق من باب الى باب — يتكفف ، وكلما أوشكت قصعته أن تفهق وجدت من يسرقها

وفي آخر اليوم المقضي أقبل لدى باب قصرك يحمل قصته الباسمة، فجئت أنت اليه وأمسكت بيده وأجلسته بجانبك على العرش

— ٣١ —

حين جرفت الجماعة شراشيفي، قال بوذا يخاطب تلاميذه « من منكم يستطيع أن يطعم الفرقى ؟ »

فصفّر راتاكر الصيرفي خدّه وقال « ان خزائني لتنوء بحاجات الجميع »

وقال جايسن قائد جيش الملك « يودي أن أبذل دمه حياتي ، ولكن داري ليس فيها من الغذاء ما يكفي »

وقال دارمايل في أنين ، على حين أنهُ يملك الضياع الواسعة « إن شيطان الجدب قد ضرب ضياعي بجفاف فلست أدري كيف أدفع ضرائب الملك »

فبيت سوريا ابنة الضحاك

واختت أمام الجمع وقالت في سذاجة « سأقوم أنا على حاجات الجميع »

فضاع الجميع في دهشة « كيف ! كيف تستطيعين أن تغني يدا الفقر ؟ »

فقالت سوريا « إني أشدكم فقراً ، تلك هي قوتي . إني أجد خزائني ومتاعي في كل بيت من بيوتكم »

— ٣٢ —

لقد كنت أجهل ما أملك ، لهذا خيل اليَّ — حين طلب مني الخراج — اني لا أستطيع أن أتوارى فلا أدفع ديني

فطرت ثم طرت أستتر في مشاغل النهار وأحلام الليل

غير أن رغباته انتالت عليَّ كما ترده شمس

لهذا أدركت أنهُ يعرفني ، وأن مكاناً على الأرض ليس لي وحدي

* * *

والآن تدفعني الرغبة الى أن ألقي بكل ما أملك عند قدميه لأجد مكاني في ملكه

— ٣٣ —

حينما عنَّ لي أن أصنع لك من حياتي تمثالاً يتعبده الناس . . . حينذاك جئت

الاتراب والرفيقات وأوهامي المتألقة وأحلامي

وحين سألتك أن تهيء من حياتي تمثالاً تبعثه من قبلك ليتلقاني وصالا . . .
حينذاك جئت بالنار والقوة والحقيقة والحب والسلام

— ٣٤ —

لقد راح الخادم يحدث سيده الملك « ياسيدي ، إن الأب ناروتام لم يدخل منزلك الملوكي أبداً . . .

« ولكنه يرتل صلوات الله تحت شجرة على حيد الطريق والمعتدل من المساء

« إنهم يتزاحمون حوله كأنهم النحل حول زهرة البرتقال يتغنى عن حين قد أعملوا جرة العسل الذهبية »

فتضرم الملك غيظاً وانطلق الى حيث الأب ناروتام يجلس تحت الشجرة
ثم سأله « يا أبت لماذا فزعت عن معبدي ذي القبة الذهبية لتجلس هنا تحت الثرى تستدني رضا الله ؟ »

فأجابه ناروتام « لأن الله ليس في معبدك »

فعبس الملك ثم قال « أتعلم أن عشرين مليوناً من الجنيهات الذهبية أنفقت في إقامة هذه المعبدة الفنية ، وهي قد نذرت لسيادة الرحمن ؟ »

* * *

فأجاب ناروتام « نعم ، إني أعرف حق المعرفة كم كان في النفقة التي أحرزت فيها بيوت الآلاف من رجالك . فاسمعني يا ملك ، وسيأتي حين يسألون عنك الله : إن هذا المكان الذي بنى أبو العصر الجميع سيشيد في بطء

« ثم أخذ مكانه بين من لاذوا فيء الشجرة على حيد الطريق تحت الشجرة

« لبثت كل هذه الأشجار المذهبة خلوية من كل شيء إلا لغنى سكوته »

فصاح الملك في ثورة « إذهب بعيداً عن ملكي »

فأجاب النفس في هدوء « لا تضر ، فأنت تنفي حيث نفيت الرب »

يتبع